١٠

الاقتضاء ووظائفه الحجاجية في سور الحواميم

ريم جبار قاسم

أ. د . مؤيد عبيد صوينت

الجامعة المستنصريَّة، كليَّة الآداب، قسم اللُّغة العربيَّة.

The requirement and its argumentative functions in the wall of Al-Hawamim

An abstract research for a master's student:

. Reem Jabbar Qassem

Supervised by:

a. Dr . Moayad Obaid Suint

الملخص:

يتجذر الاقتضاء في تاريخ اللغة لما يقدم من أدوار مهمة وقضايا ذات صلة ببناء اللغة بصفة عامة، ونلاحظ وجود مادة حية تفجرها النصوص المختلفة في التراث العربي تعد صالحة للمقاربات النظرية مع ما وصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة. فطرق التماثل في التحليل التي افترضناها في منهج القدامى, خصوصا البلاغيين منهم, وكذا الأصوليين والمناطقة, لا تعني بالضرورة وجود تطابق تام وكلي بين التصور العربي القديم لموضوع الاقتضاء, وتصور الدراسات اللغوية المعاصرة للموضوع نفسه.

Summary:

The necessity is rooted in the history of the language because of the important roles presented and issues related to the construction of the language in general. The methods of symmetry in analysis that we assumed in the approach of the ancients, especially the rhetoricians among them, as well as the fundamentalists and the regionalists, do not necessarily mean that there is a complete and total congruence between the ancient Arab perception of the subject of expediency, and the perception of contemporary linguistic studies of the same subject.

توطئة:

اللغة مجال رحب ومتسع، واللسان البشري يستعمل اللغة بشكل غير محدد, فالإمكانات القولية تفرض عليه التكثيف تارة والاتساع تارة حسب مقتضيات القول، ويتم هذا حسب العلاقة التي ينسجها بين الفكر والقول، وتميل اللغة إلى الاقتصاد بدافع تقليل الجهد وضغط الشروط المقامية فنشأ بذلك بؤرة صريحة وأخرى مضمرة داخل الخطاب فالبؤر الصريحة لا تحتاج إلى كبير عناء لاستجلاء معانيها, أما البؤر المضمرة فتستلزم كفاءة المخاطب لفك شفراتها ,كلما كثر المضمر في الخطاب كلما كثر انشغال المخاطب في فك الإضمار باعتماد قرائن مقالية ومقامية لأن استخراج المضمرات من الخطاب يساعدنا على فهم كلي لمعنى الكلام وأن الكلام المضمر قد يعرضنا إلى خطر الانزلاق التأويلي[١]، وينقسم المعنى المضمر إلى تضمينات واقتضاءات واستلزامات, ويعد الاقتضاء أحد أبرز أشكال الإضمار[٢].

يتجذر الاقتضاء في تاريخ اللغة لما يقدم من أدوار مهمة وقضايا ذات صلة ببناء اللغة بصفة عامة، ونلاحظ وجود مادة حية تفجرها النصوص المختلفة في التراث العربي تعد صالحة للمقاربات النظرية مع ما وصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة. فطرق التماثل في التحليل التي افترضناها في منهج القدامى, خصوصا البلاغيين منهم, وكذا الأصوليين والمناطقة, لا تعني بالضرورة وجود تطابق تام وكلي بين التصور العربي القديم لموضوع الاقتضاء, وتصور الدراسات اللغوية المعاصرة للموضوع نفسه.

أما بخصوص أدواره, فإننا نرى أنها لم تستثمر بالشكل الكافي في الدراسات الحجاجية والتداولية المعاصرة, إذا علمنا بأنه فن يدعو إلى مفهوم الاستقلال في خطابه المسكوت عنه, كما يدعو إلى إعادة النظر في تصور النظرية اللسانية العامة. ومن جهة أخرى فإن أغراضه الحجاجية تبين بأن مفهومه يستدعي ضرورة بناء نظرية للموقف التواصلي, نظرا إلى ارتباط الاقتضاءات بالجانب التداولي[٣].

تعريف الاقتضاء:

الاقتضاء لغة: الطلب والاستلزام من الفعل اقتضى .وقولهم اقتضى الدين أي طلبه واقتضى أمرا: استلزمه وتطلبه, ويقال: أفعل ما يقتضيه كرمك: أي ما يطالبك به .وسهل الاقتضاء: الطلب, واقتضيت مالي عليه, أي قبضته وأخذته. واقتضى الأمر الوجوب دل عليه[٤]. أما الاقتضاء عند الأصوليين فيتفق أغلبهم في تعريفه: بأنه دلالة اللفظ على معنى مسكوت عنه لازم للمعنى الذي وضع له, ومتقدم عليه, ومقصود للمتكلم, وجب تقديره ضرورة لتوقف صدق الكلام أو صحته العقلية أو الشرعية عليه[٥].

عبر هذا التعريف تتحدد أركان بنية الاقتضاء في ما يلي[٦]:

-المقتضي: هو المذكور الذي يتطلب أمرا مسكوت عنه ليستقيم صدق الكلام أو صحته العقلية أو الشرعية.

-المقتضى: هو المسكوت عنه الذي يصح به المذكور(المقتضي).

-دلالة الاقتضاء : هي الدلالة الناتجة عن اقترانهما معا.

-حكم المقتضى: هو الحكم الثابت بعد تقدير المقتضى.

ويعرف معجم اللسانيات الاقتضاء بأنه تلك العلاقة التي تجمع بين وحدتين لسانيتين, إذ إن وجود إحداهما في هذه السلسلة شرط ضروري لوجود الأخرى...ويطلق على هذه العلاقة علاقة من جهة واحد.

والاقتضاء باعتباره مفهوما تداوليا يستدعى مطابقة بين الملفوظ وسياق تلفظه فجملة (أغلق الباب) لا تقتضي فقط أن هناك بابا, وأن ذلك الباب مفتوح, إنها تدرك بالضبط الشروط التي تسمح بإنجاز أي فعل أمر معين, كما يدرس التحليل اللساني البنيات التركيبية والمعجمية التي تقترن بقيمة الاقتضاء، وتهتم مقتضيات الوجود بالمجموعة الاسمية وبتحديدات الاسم... كما يضمن الاقتضاء اتساق الخطاب من خلال تجنّب التكرار عديم الجدوى, إنه يفرض على المنخرطين في إطار ضمني للخطاب[٧].

نستنتج من خلال هذا التعريف ما يلي:

– الاقتضاء علاقة شرطية أو تشارطية بين وحدتين لسانيتين, فالعلاقة الشرطية من جانب واحد والتشارطية مشتركة بين الجانبين, فيكون المقتضى شرطا لتحقيق المقتضي, والعكس صحيح, كما تكون الشرطية ثنائية, والمقصود بثنائية الشرط هنا: «أن يكون المقتضى شرطا للقول المقتضي ولنقيضه معا», فقولنا: اشترى أخ مريم ثلاثة أحصنة, يقتضي أن لمريم أخا, فهذا المقتضى متعدد الشرطية؛ لأنه شرط ضروري في حالة إثبات القول (اشترى أخ مريم ثلاثة أحصنة), وضروري أيضا في حالة النفي (لم يشتر أخ مريم ثلاثة أحصنة), كما يبقى صامدا أثناء إجراء الأخرى عليه كالاستفهام مثلا(هل اشترى أخ مريم ثلاثة أحصنة؟).

– الاقتضاء علاقة بين قضية ظاهره وأخرى خفيّه, فالقضية الظاهرة(أ) ونفيها يتضمنان القضية (ب).

– الاقتضاء حاصل في البنيات المعجمية, وحاصل كذلك في البنيات التركيبية, إذ يرتبها اقتضائيا لينتج عن تركيبها مقتضيات دلالية.

–الاقتضاء علاقة للقول بسياقه الذي قيل فيه, إنه مجانس بين الملفوظ وسياق تلفظه, فكل كلام ينبغي أن يكون مناسبا للسياق الذي قيل فيه.

– يقوم الاقتضاء بمهمة حفظ إطار التخاطب, فما دام المتكلم يقدم مقتضياته على أساس أنها مسلمات, وما دام المخاطب لا يجادلها, فإنها تشكل أرضية متوافقا بشأنها, وهنا تبرهن الفعالية الحجاجية للمقتضى[٨].

فعل الاقتضاء:

يوسم فعل الاقتضاء عند ديكرو بأنه فعلا لغويا منظما مؤطرا لعملية التخاطب بين المتكلم والمتلقي وعنصر مائز في العملية الحجاجية بين المتخاطبين ؛حيث ييسر إدخال المتلقي ضمن اعتقادات المتكلم أو الإيهام بذلك بغية فرض قوله وما يستلزمه حجاجيا.

والاقتضاء ليس رهين الخطاب وظروفها المقامية وتفاعل الذوات عند استعمال اللغة فحسب, بل هو متجذر في اللغة نفسها بما أنه ليس معطى بلاغيا صرفا مرتبطا بالقول فالاقتضاء عملية مشتركة بين المتكلم والمخاطب وخاصية الاشتراك هذه لا يمكن معه إلا قبول المقتضى وهنا أجاد الجانب الخطابي الأساسي للاقتضاء وهو كونه إطارا تندرج فيه المحادثة. ولتبيان العلاقة بين القول وضمنياته وبالخصوص الاقتضاء والتلميح, يماثل ديكرو هذه الظواهر الدلالية الثلاث بنظام الضمائر فلمّا كان القول من إنشاء المتكلّم فهو يماثل ضمير المتكلّم المفرد (أنا) ولما كان التلميح هو ما يستنبطه المخاطب من قول المتكلّم فهو متروك للمخاطب(أنت) ولما كان الاقتضاء مشتركا بين المتخاطبين فهو يماثل ضمير المتكلّم فهو يماثل الجمع نحن. وبهذا تسند الوظيفة الأساسية للاقتضاء باعتباره منظّما للمحادثة بين الأفراد(٩).

يرى (ديكرو)المقتضى فعلا لغويا وموقفا من المتكلم, له خصائص ووظائف. إنه فعل كلامي خاص ,فعل مثل الإثبات أو الاستفهام أو الأمر, لأنه يقوم بمهام متعددة بين الذوات المتخاطبة. يخلق الإلزامات ويؤسس الحقوق والواجبات ويعين الأدوار. تتجلى خصوصية الاقتضاء في الطريقة التي يؤطر بها المخاطب لاستمرار الخطاب ويجبره على الفعل وكأن محتوى الاقتضاء حقيقة مؤكدة لا يمكن أن يعاد النظر فيها. وإذا وجد ربط, فهذا الأخير لا يمكن من حيث المبدأ أن يؤدى إلا على مستوى المثبت وليس على مستوى المفترض(١٠).

ومما يميز الاقتضاء حجاجيته كون قائله: «صوتا جماعيا يضم المتكلم المنفرد صوته الخاص, ويكون هذا المرجع مغفلا وجمعيا وحتى شموليا, أي أنه رأي شائع»(١١)، ومن ثم فالنصوص المقررة (المنطوق بها) مفتوحة ببساطة على المتلقي ,في حين تكون الافتراضات مفروضة عليه بشكل فظ وهي تدعي البداهة ,أما المتكلم الذي يدلي بها فيدعي البراءة(١٢).

الاقتضاء إذن القضية الخفية(المسكوت عنه) ,وهو أحد أشكال الضمني ,إنه مرتكز في البنية اللغوية, يحدد عادة بوساطة اختبار النفي والاستفهام.

معيار ضبط المقتضى:

معايير ضبط المقتضى لدى ديكرو هما بنيتا (النفي) و(الاستفهام) ومن خلالهما يمكن أن يحافظان على تحديد المقتضى اللغوي للجملة وأن غيرا في قوتها وهذا موضوع عمل الاقتضاء.

ونستدل على ذلك من خلال المثالين الآتيين:

- انقطع زيد عن التدخين.

إذا تم تحويله إلى استفهام يعطينا ما يلي:

- هل انقطع زيد عن التدخين؟

وإذا تم نفيه:

- لم ينقطع زيد عن التدخين .

وهذه الجمل تظهر شيئا جامعا وهو (كان زيد يدخن/المقتضى)[١٣].

ويثبت صدق الاقتضاء بمراعاة عالم الخطاب الذي هو مرجعه والاقتضاء هو أحد أشكال الضمني فالقضية المضمرة تستلزم وجود قضية أخرى صريحة تفترض صدق جميع الأحوال المقررة في القضية الثانية كما هو موضح بالمثال الآخر:

- ملك فرنسا أصلع

إذا تم تحويله إلى استفهام:

- هل ملك فرنسا أصلع؟

وإذا تم نفيها:

- ملك فرنسا ليس أصلع

وهذه الجمل أيضا تظهر شيئا مشترك وهو(وجود ملك فرنسا/المقتضى)[١٤].

يؤدي الاقتضاء إلى اتساع دلالة المثالين هذين هي كونه يقدّم تفسيرا أو استدلالا بيّنا على مقدرة المتكلّم في أن يعني أكثر ممّا يقول وكذلك يقول غير الذي يعنيه أي أن يكتنف ملفوظه دلالات أوسع ممّا يعبّر عنه بالمعنى المتحصّل من ألفاظه.

الإضمار والاقتضاء:

اتخذت دراسة ثنائية الإضمار والاقتضاء عناية بالغة في مختلف مجالات اللغة وهذا ما نستنتجه من خلال دراستنا وجدنا أن للدرس الأصولي الأكثر اهتماما بهما, ويمكن تنجيم المعطى وفق الآتي:

– ففي التراث العربي سلك الاقتضاء منحى أصوليا, حيث تبئر في نطاق البحث في مقصدية الخطاب الشرعي:« والإضمار والاقتضاء هما سواء وأنهما من باب الحذف والاقتصار لكن الإضمار كالمذكور لغة حتى قلنا: إن للمضمر عموما؛ فإن من قال لامرأته(طلقي نفسك) ونوى الثلاث صح لأن المصدر محذوف فهو كالمذكور لغة فصار كأنه قال (طلقي نفسك طلاقا) وأما المقتضي فليس بمذكور لغة بل يجعل ثابتا ضرورة صحة الكلام شرعا فلا يعم هذا عندنا وعلى قول الشافعي للمقتضي عموم لأن المذكور شرعا كالمذكور حقيقة فيعم»[١٥].

– لقى مكون الإضمار والاقتضاء في الدرس الأصولي ضمن بحثه الدلالي عناية بالغة؛ إذ كانت اللغة في بعض الأحيان الأساس الوحيد في استنباط الأحكام, بل كانت أساسا من أسس الاختلاف بين الفقهاء, وكان مبعث العناية الوقوف على مقصد الشارع المشرع الحكيم والكشف عن مراده من خلال نصوصه[١٦].

– في السياق اللغوي لما للإضمار والاقتضاء من أهمية تحتاجه المعارف العملية في العديد من المجالات منها في توجيه الفتوى الصحيحة وتنقيح الكلام , وفي المجالات الاجتهادية قارنوا بينه وبين النقل فقدمه بعض الأئمة على النقل «والإضمار أولى من النقل عند أبي حنيفة وبالعكس عند الشافعي مثاله قوله تعالى (وحرم الربا) أي أخذ

الربا وهي الزيادة كبيع درهم بدرهمين مثلا فيصح البيع إذا سقطت الزيادة ويرتفع الإثم هذا عند أبي حنيفة والربا عند الشافعية تقل شرعا إلى العقد فيفسد ويأثم فاعله»[١٧].

– أما في الاجتهادات اللغوية فقد وردت أهمية الاقتضاء في تبديل بعض الصيغ بصيغ أخرى؛ وهي مواضيع تدعو إلى التأمل في الوضع البلاغي للكلمات التي يعتمد عليها نسق الخطاب العربي في فهم المعنى وافتراض المحذوف: «ومن الإضمار وضع العرب (فعيلا) في موضع (مفعل)نحو(أمر حكيم) بمعنى (محكم) ومفعل نحو(عذاب اليم) بمعنى مؤلم قال أمن ريحانة الداعي السميع «بمعنى المسمع ويجوز الإضمار قبل الذكر لفظا ومعنى عند أرباب البلاغة إذا قصد تفخيم شأن المضمر وجاز عند النحويين أيضا في ضمير الشأن نحو (إنه زيد قائم)وفي ضمير (رب) نحو(ربه رجلا) لقيته وفي ضمير(نعم) نحو (نعمه رجلا زيد) وفي إبدال المظهر من الضمير نحو (ضربته زيدا) وفي باب التنازع على مذهب البصريين نحو(ضربني وأكرمت زيدا) والإضمار قد يكون على مقتضى الظاهر وقد يكون على خلافه فإن كان على مقتضى الظاهر فشرطه أن يكون المضمر حاضرا في ذهن السامع بدلالة سياق الكلام أو مسافة عليه, أو قيام قرينة في المقام لإرادته, أو أن يحضر لما ذكر وإن لم يحضر لقصور من جانب السامع ,ومن هذا القبيل قوله ممن حملن به وهن قواعد»[١٨].

– الإضمار والاقتضاء يؤديان وظيفة حجاجيه يجعلان الحجة أكثر التصاقا بمنبعها اللغوي, ولا يخفى ما يكتنف عنصر اللغة من طابع منطقي تسري صلابته على متلقي الخطاب فتوجهه وجهة يعجز في أحايين كثيرة عن مواجهتها[١٩]. ولما كانت التداولية مدمجة في الدلالة مع اعتبار الملفوظ قوة إنجازية، فإن ديكرو جعل الاقتضاء والحجاج فعلين لغويين ففعل الاقتضاء كما يتصور ديكرو هو ذلك «الفعل الذي ينظم إطار المحادثة وإطار الخطاب عموما, فترابط الأقوال مفاده إن استئناف الكلام لا يكون إلا انطلاقا مما قيل لا مما ضمن فيه»[٢٠].

الاقتضاء ووظائفه الحجاجية في سور الحواميم:

لقد عد ديكرو الحجاج فعلا لغويا كما الاقتضاء لأن امتزاج فعلي الاقتضاء والحجاج يجعلنا أمام فعل كلامي مركب يتأسس على استراتيجية ضمنية موجهة, وعلى هذا الأساس سنقوم بدراسة تجليات الظاهرة الاقتضائية في الكلمة والتركيب, أي في سياق الخطاب ككل ثم إبراز الوظائف الحجاجية التي تؤديها هذه الاقتضاءات من خلال ربطها بالعناصر التداولية, على اعتبار أن تصور التداولية المدمجة يعتبر اللغة حاملة لمتتالية من الإمكانات الحجاجية المسجلة في معجمها وفي بنياتها التركيبية المختلفة, وهذه الإمكانات تتحقق داخل الخطاب من خلال إعطاء الأولوية للعلاقات الحجاجية(٢١).

المقتضى المعجمي ووظائفه الحجاجية:

عادة ما ينتج الاقتضاء عن العلاقات التركيبية المختلفة داخل الجملة من خلال البنيات التركيبية كالاستفهام والشرط والاستثناء... أو عبر تفاعل الأطراف المشاركة في التخاطب, إلا أن الكلمة في حد ذاتها تحوي سمات دلالية أن معاني الكلمات ليست لها كلها مقتضى معجمي فبعض الكلمات لها مقتضى والبعض الآخر لا يوجد لها مقتضى معجمي وذلك لكونها ليس لها معنى أصلا كأسماء الأعلام وكذلك أسماء الجنس مثل (رجل ,شجرة, جبل)(٢٢)، أما الكلمات التي لها معان مسببة لحدوث الاقتضاء, وأنّ أولى هذه المسببات هي البنية المعجمية للكلمات, إذ في هذا المستوى تبرز التشكلات الأولى لهذه الظاهرة, يؤطر المقتضى المعجمي للكلمات من خلال علاقة التقابل بين الكلمات المصرح بها(المقتضي) والكلمات المضمرة(المقتضى) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ ﴾

الخطاب القرآني في تفاعل دائم مع المحيط الذي نزل فيه ؛ والجانب الحجاجي فيه, يحكي عن أقوال الخصوم المشركين ومواقفهم, ثم الرد عليها بالاعتراض على أفكارهم

وهي الإشراك بالله وجعل له شركاء ,كما ورد في الآية الكريمة ولعل أبرز غاية حجاجية جامعة لأغراض هذا المكون في الآية الكريمة (حذف الفاعل) هي التبئير ويفيد لسانيا انحصار الكلام في معنى معين بإلقاء الأضواء على العنصر الأساس فيه باعتباره مدار الكلام في الآية[٢٣]، « وموقع أنّما إلهكم إله واحد أنّه نائب فاعل يوحى إليّ، أي يوحى إليّ معنى المصدر المنسبك»[٢٤] وجاء المبني للمجهول- بوصفه إضمار للفاعل-ليسلط الضوء ويلفت الانتباه إلى حقيقة الحدث وطبيعته ومدى علاقته وتعلقه بالمفعول الأصلي, فيحقق الغرض الأساس من إبراز عناصر المشهد ,ويتيح لها المجال الأكبر لتأدية دورها في قوة ووضوح دون مزاحمة لفظية, أو حضور لغوي لا يتعلق الغرض به مما يمنح الملفوظ طاقة حجاجية أكبر ويجعل الأذهان تركز انتباهها في المقصود دون غيره[٢٥]، وردت الصفة بقوله تعالى «أنّما إلهكم إله واحد وهو حصر صفة الله تعالى في أنّه واحد، أي دون شريك))[٢٦].

بحضور بارز في الآية توكيدا وتقريرا للمعنى ووقاية له اقتضاء, ذلك من أجل التوكيد ووقاية للمعنى الاقتضائي للمتشككين والمترددين من الخصوم[٢٧].

أما المحتوى المعجمي في الآية لكلمة «استقامة: كون الشّيء قويما، أي غير ذي عوج وتطلق مجازا على كون الشّيء حقّا خالصا ليست فيه شائبة تمويه ولا باطل. وعلى كون الشّخص صادقا في معاملته أو عهده غير خالط به شيئا من الحيلة أو الخيانة، فيقال: فلان رجل مستقيم، أي صادق الخلق»[٢٨]، والمعنى المعجمي المتعلق بلفظة (الاستقامة) هو الذي استدعى معنى مناقضا له وهو(العوج) وهذا المقتضى لكلمة استقامة فالاستقامة تقتضي العوج ويعد هذا المعنى المعجمي الحاصل من لفظة (الاستقامة) حاملا حجاجيا متعلقا بفطرة الإنسان السليمة التي فطر عليها, وهي أصل الوجود الإنساني, إلا أن انزياح المستقيمين عن هذا الوضع الفطري جاء برغبة منهم أما المعنى المعجمي الآخر في الآية ذاتها هو «والاستغفار: طلب العفو عمّا فرط من ذنب أو عصيان وهو مشتقّ من الغفر وهو السّتر»[٢٩]، وهذه الكلمة (الاستغفار)

تقتضي معنى مقابلا لها هو (الذنب أو العصيان) فالعلاقة القائمة بينهما علاقة مشتركة ولا يمكن وجود القضية الأولى دون وجود القضية الثانية, وقد وقع الاختيار على هذين الكلمتين المعجميتين في الآية الكريمة بسبب حمولتها الاقتضائية والحجاجية, أن الكلمتين (الاستقامة والاستغفار) ومقتضاهما(العوج والمعاصي أو الذنوب) تدل على أن الله غفور رحيم بعباده وأن الله يعطي فرصة لمن يهتدي حتى وإن عمل المعاصي والذنوب وكذلك لمن اعوج عن الطريق ثم استقام وهذه حجج تفرض عليهم تحمل تبعات ما يقومون به (من الإشراك) الذي اختاروه بمحض إرادتهم وبذلك يستحقون ما يحل بهم من العقاب.

ومثال على ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾[فصلت: ٩].

وردت كلمة (كفر) وبعض اشتقاقاتها في القرآن الكريم بمعان متداخلة نلتمسها عند ابن منظور قال: (الكفر نقيض الإيمان, وكفر النعمة جحودها, وهو ضد الشكر ورجل كافر أي جاحد لأنعم الله, والكفر مشتق من السّتر, لأنه مغطى على قلبه(٣٠)، وكفر النعمة –كما ذكر الراغب– وكفرانها سترها بترك أداء شكرها, وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة, والكفران هو جحود النعمة أكثر استعمالا, ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود والكفر وصف جار على كل من هو فاسق أو فاجر)(٣١).

إن مأتى هذا المقتضى الواقعي هو الحامل المعجمي لكلمة (الكفر) هو(الجحود بنعمة الله) ترتبط هذه الوظيفة إيراد مقتضى (معنى الكفر) والذي في أغلبه يتجه نحو النزاع والخصام بين المتكلم والمخاطب والغاية المتوخاة من ذلك ترهيب المخاطبين مما هم عليه من الغي وزعزعة بل تغيير ما يعتقدونه بوساطة مقتضى يتضمن حقيقة من شأنها أن تحدث انقلابا في أذهانهم(٣٢), وإشعاره بأن الكفر موجودة حاضرة متحققة لا

محالة, كما وجهت الحمولة الحجاجية لهذا المقتضى للكافر من أجل تصيح اعتقاده بضرورة تحقق الشكر على النعمة, والتراجع عن جحودهم.

المقتضى المعجمي المبني على المحددات المصداقية للأفعال:

يوجد مقتضى معجمي مبني على المحددات المصادقية للأفعال فبعض الأفعال تقتضي صدق متمماتها, في حين تقتضي أفعالا أخرى عدم صدق هذه المتممات, فتنتج عن ذلك إما مقتضيات واقعية صادقة أو غير واقعية غير صادقة فالأفعال التالية (أيقن–علم–تأسف–بشر–أدرك...) تقتضي صدق متمماتها, في حين أن الأفعال مثل(ظن–تخيل–ادعى–خال–حسب...) تقتضي عدم صدق هذه المتممات وهذه المحددات المصداقية للأفعال تتم على مستوى المعجم من خلال شروط الانتفاء[٣٣], ففعل (أيقن) مثلا يفرض في شروط انتفاء محمولة أن يكون شيئا متحققا, وفعل (حسب) مثلا يفرض العكس في شروط الانتفاء كما في قوله تعالى:

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[الزخرف: ٨٠]

فإن فعل (حسب) هو «أن يحكم (فلان) لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصبع»[٣٤], فالمتكلم خطر بباله أن الله لا يعلم ما يتكلمون به في سرهم ونجواهم المراد بالسر والنجوى هو أن السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال. والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم[٣٥]، وهذا أمر غير متحقق, وقد اقترن الحامل المعجمي للاقتضاء بفعل (حسب) الذي يقتضي عدم تحقق محمولة, وعلى هذا الأساس فالمقتضى الناجم عن العنصر المعجمي (حسب)غير متحقق, وهو (أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم), ليكون المعنى «بلى نسمعها ونطّلع عليها ورسلنا يريد الحفظة يكتبون عليهم كل صغيرة وكبيرة إذا كانوا يظنون غير ذلك فقد خابوا وخسروا»[٣٦]، والإجابة بـ(بلى) التي يجاب بها عن الشيء العظيم ؛فيزول ذلك التوّهم عند من حصل له وعدم صدق هذا المعنى يقتضي صدق نقيضه, فوجب اعتبار (أن

الله يسمع سرهم ونجواهم) مقتضى صادقا متحققا, وهذا المقتضى المعجمي الواقع من لفظة (حسب) من خلال شروط انتقائها المعجمية أشّر على بروز حجاج بالمثال, على اعتبار أن هذا المقتضى يهيئ المؤمن على تقبل أن الله عالم بكل شيء حتى ما يحدث بسركم ونجواكم وهذه حقيقة يجب الاعتراف بها.

المقتضى التركيبي ووظائفه الحجاجية:

بعد ترقّب المستوى الأول من تشكلات الظاهرة الاقتضائية في الكلمة من خلال الحامل المعجمي ووظائفه الحجاجية, يظهر مستوى آخر من مستويات هذا التشكل, يتعلق الأمر بالمستوى التركيبي, والمقصود بالتركيب هنا هو العلاقات التي تحبكها الوحدات اللغوية فيما بينها من خلال احتلالها موقعا خاصا, إذ إن المبدأ الذي أدار تتابع الوحدات اللغوية داخل البنيات التركيبية المختلف هو مبدأ الاقتضاء ,فتنتظم هذه الوحدات على نسق خاص وفق علاقات اقتضائية, وهذا الانسجام التركيبي المخصوص هو الذي ينجم عنه اقتضاءات دلالية تدخل في صميم الاستراتيجية الحجاجية(٣٧)، وسوف نقسم المقتضى التركيبي على قسمين:

حجاجية المقتضى التركيبي الناتج عن البنيات الشرطية:

إذا كانت الجمل الامتناعية تقتضي عدم تحقق شرطها وجزائه, فإن بنيات شرطية أخرى تقتضي صدق شرطها وصدق جزائه, ومن بين تلك البنيات ,البنية الشرطية المتعلقة ب(لما), فـ(لما) لها ثلاثة مواضع, إما أن تكون جازمة للفعل المضارع, أو تكون بمعنى إلا, أو تكون شرطية(٣٨)، وهذا الموضع الثالث هو الذي يهمنا في هذه الناحية. وفي هذه الآية من سور الحواميم نلحظ عظمة موقف موسى برسالة أمام أعظم ملوك الأرض يومئذ، وغفلتهم عن الحق الذي أنزله سبحانه وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥ ﴾[غافر: ٢٥].

ف(لما) حرف يدل على وقوع شيء عند وقوع غيره ,فوقوع جوابها مقارن لوقوع شرطها, وذلك معنى قولهم حرف وجود لوجود, أو حرف وجوب لوجوب[٣٩]، أي حرف يدل على وجود الجواب لوجود الشرط[٤٠]، تدل (لمّا) على تعالق زمني بين حدثين فالترابط السّببي بين الشرط وجزائه ضالع في الخطاب نسبة إلى الإشارة الزمنية الحاصلة بين جزئيه[٤١].

ويظهر في بنية الشرط مقتضى واقعي متحقق إذ يقتضي هذا التركيب الشرطي ب(لما) صدق شرطها وصدق جزائه, وعلى هذا الأساس, يشمل المقتضى المتعلق ب(لما) وحدتين دلاليتين تحوزان مقاصد حجاجية:

– الوحدة الدلالية الأولى: تحقق «وصول موسى– عليه السلام– بدعوته. وخاطبهم بما أمره الله– تعالى– أن يخاطبهم به، وجابههم بالحق الذي زوده الله– تعالى– به»[٤٢].

– الوحدة الدلالية الثانية: « تحقق قتل الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى، ودخلوا في دينه، واتركوا الإناث دون قتل لخدمتكم، وليكون ذلك أبلغ في إذلالهم. إذ بقاء النساء دون رجال فتنة كبيرة. وذل عظيم»[٤٣].

وهذان المقتضيان الواقعان الناتجان عن الشرط بـ(لما) حجتان قاطعتان على تحقق إبلاغهم بمجيء موسى –عليه السلام– ومعرفتهم بذلك, وهكذا جردهم الله تعالى من حجتهم للتخلص من تبعات التصديق بالرسالة, فأتى هذا المقتضى ليثبت تحقق المجيء ولعلّ الحجاج ضرب من المخاطبة الطبيعية, فإن كل محاجج يسعى في داخل العملية الحجاجية إلى تمكين مخاطبه للوصول إلى الدلالات الاقتضائية والاستلزامية, بالنظر إلى القرائن السياقية والمقامية, ومن ذلك مجيء الضمير جاءهم يحمل على أنّه عائد إلى غير مذكور في اللّفظ لأنّه ضمير جمع يدلّ عليه المقام والمقتضى أهل مجلس فرعون الّذين لا يخلو عنهم مجلس الملك في مثل هذه الحوادث العظيمة لأن المقتضى يعد عنصرا غائبا له وجود ,يقوم مقام المنطوق به ؛فهو جزء من المعنى, كأنك نطقت

به, وإنما تخففت بحذفه, وآثرت الإيجاز بتركه, وهذا أمر سائغ في كل لغة, بل هو في العربية أكثر لميلها إلى الإيجاز وإلى التخفيف بحذف ما يفهم(٤٤).

أما البنية الشرطية الحاملة لمقتضى واقعي مضاد ينتج عن بعض الجمل المصدرة بـ(لو) الشرطية اقتضاء دلالي واقعي مضاد, بمعنى أن القضية التي تحملها هذه الجمل الشرطية تقتضي تحقق ضدها في الواقع, فيكون انتفاء طرفيها مقتضى من منطوقها(٤٥)، عندما يكون الشرط والجزاء مثبتين, فمقتضى القول « لو كنت صديقي لساعدتني»(٤٦)، أنك لست صديقي وأنك لم تساعدني, فلما انتفى السبب (الصداقة) انتفت النتيجة(المساعدة), أما إذا كان شرطها وجزاؤه منفيين, فإن مقتضاها يكون بضدهما, أي متحقق على مستوى الواقع, فلو حولنا المثال نفسه للنفي: «لو لم تكن صديقي لما ساعدتني», لاقتضى هذا التركيب أنك ساعدتني لأنك صديقي, وما يجعل الاقتضاء متعلقا بالبنيات الشرطية المصدرة بـ(لو) كونها تتعلق بالزمن الماضي(٤٧)، وفي قوله تعالى:﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ ﴾[الشورى: ٢٧] .

فـ(لو) «تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره»(٤٨), ليصبح المقتضى هو عدم تحقق بسط الله الرزق لأن حكمته تعالى اقتضت ذلك(٤٩)، وبذلك يكون المنطوق الصريح أو ما سمي بـ-عبارة النص- كما يعرف بأنه: «دلالة اللفظ على حكم مقصود من السياق أصالة أو تبعا»(٥٠)، وبذلك عقدوا علاقة اقتضاء عن طريق أسلوب الشرط , فالتّلازم بين الشّرط في قوله: ولو بسط الله الرّزق لعباده والجواب لبغوا «حاصل بهذه السّببيّة بقطع النّظر عن كون هذا السّبب قد يخلفه ضدّه أيضا»(٥١)، الشرط كما هو معروف أسلوب قوي يستعمله المتكلم لدحض حجج المقابل «في بيان السبب الّذي لأجله كان التّوسّع موجبا للطّغيان ذكروا فيه وجوها الأوّل: إنّ الله تعالى لو سوّى في الرّزق بين الكلّ لامتنع كون البعض خادما للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطّلت

المصالح الثّاني: إنّ هذه الآية مختصّة بالعرب فإنّه كلّما اتّسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم أقدموا على النّهب والغارة الثّالث: إنّ الإنسان متكبّر بالطّبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصليّة وهو التّكبّر، وإذا وقع في شدّة وبليّة ومكروه انكسر فعاد إلى الطّاعة والتّواضع»(٥٢).

ونرى أنّ علاقة الاقتضاء تتسم بنجاعة حجاجية فائقة, نظرا إلى أثرها المتداول, وتعدّ علاقة الاقتضاء ذات طاقة حجاجية عالية, حيث تجعل الحجة أن تقتضي النتيجة اقتضاء, فتصبح العلاقة ضربا من التلازم, وهو ما لا توفره سائر العلاقات الأخرى حتى السببية, وأقدر الروابط الحجاجية على توفير هذا النوع من العلاقة أدوات الشرط المختلفة(٥٣)، أما القيمة الحجاجية للمقتضى(عدم بسط الرزق) القائم لأسباب جاءت بالتوكيد(اللام وأن) فنجدها بالإضافة إلى الطاقة التوكيدية المضاعفة التي يضفيها المضمون القضوي للملفوظ ,تكمن في تفويت فرصة الاعتراض والتعقيب على القضية (عدم بسط الرزق) من طرف متلق الخطاب بأن أضحت المسألة حقيقة ثابتة لا مجال لردها، ولمّا بيّن تعالى أنّه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنّه علم أنّ تلك الزّيادة تضرّهم في دينهم بيّن أنّهم إذا احتاجوا إلى الرّزق فإنّه لا يمنعهم منه(٥٤)، بذلك تضاعفت قوة الحجاج عن طريق علاقة الاقتضاء بواسطة الشرط الذي يقوم على البراعة والتأثير بالمتلقي فالاقتضاء له أثر بالغ في تحقيق الهدف الأساسي من العملية الحجاجية وهو الإقناع.

إن بعض البنيات الشرطية يتحقق أحد طرفيها دون الآخر, فـ(لولا) فهي «بمعنى امتناع شيء لأجل شيء, أو وقوع شيء لأجل شيء»(٥٥)، أو تحقق السبب دون تحقق النتيجة, ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[فصلت: ٤٥] (٥٦).

فالتركيب الشرطي هنا أفاد مقتضى متحققا وهو كلمة «هي كلمة الإمهال إلى يوم القيامة»[٥٧], وآخر غير متحقق وهو وقوع العذاب «باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السالفة»[٥٨], إذ إن كلمة الله ورحمته على الناس جنبتهم وقوع العذاب وأمهلهم إلى يوم القيامة فكما أنّ السّبب لا ينفكّ عن مسبّبه فإنّ فعل الشّرط لا ينبتّ عن جوابه «وذلك أنّ حقيقة الشرط وجوابه أن يكون الثّاني مسبّبا عن الأوّل» والتعالق المفروض بينهما يحتّم ترابطهما بأن يستدعي وجود أحدهما انتفاء الآخر, إنّ مأتى العلاقة الحتميّة التي يتكفّلها الشّرطيّ نابع من الاقتضاء المرصد من تعالق صدريّ الشّرط, فالتّرابط السّببيّ بين جملتيّ الشّرط مفض إلى ضرب من الترابط بين التركيب والنتيجة المرصودة من انسجامه ,والاقتضاء الناجم من الشرط هذا إلّا ضربا صوريّا من الاستدلال[٥٩].

إن التوجيه الحجاجي الذي أمنته أداة الشرط (لولا) من خلال مقتضييها التركيبيين كلمة الله ورحمته أمران حاصلان جنّبا الانسان من العذاب في الدنيا أي« تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمّى وهو يوم القيامة»[٦٠]، فالطاقة الحجاجية لهذين المقتضيين هي ضعف الإنسان وشدة حاجته إلى رحمة خالقه.

حجاجية المقتضى التركيبي الناتج عن بنية الاستفهام:

تشمل بنية الاستفهام, في بعض الحالات, على مقتضيات دلالية صادقة, ومثال ذلك الجمل المستفهمة بـ(متى), (أين), (لماذا), (كيف), (من), فهذه الجمل تبني إطارا اقتضائيا يفرض على المخاطب التوافق بشأنه من خلال الإجابة عن السؤال الذي يقتضي تصديق المعلومة المقتضاة باعتبارها تحصيل الحاصل, فالسؤال (أين بعت الدراجة؟) يقتضي أنك بعتها, أو(متى غادر؟) يقتضي أنه غادر[٦١].

ونظرا لكثرة المعاني البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام, وصفها (الدسوقي) بأنها لا تنحصر[٦٢]، فالاستفهام الحقيقي في القرآن قليل, وقد كان من قول البشر, لذلك وقعت جملة الاستفهام فيه معمولة للقول أو السؤال[٦٣]، وكل استفهام صدر من المولى –عز

وجل- كان غير حقيقي, قصد به غرض من الأغراض الكثيرة والمتنوعة ومن ذلك قوله تعالى:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ ﴾[غافر: ٥].

يراد بهذا الاستفهام التقريري دفع المخاطب إلى الاعتراف بحقيقة ثابتة لا تدفع, ومعظم صوره تأتي على جهة الإثبات(٦٤)، فجواب السؤال هو تقرير هؤلاء المشركين بمعرفتهم مصير الأمم والشعوب التي عتت عن أمر ربّها, كقوم نوح و« الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم»(٦٥)، فهذا المقتضى يمثّل معلومة قديمة معروفة لدى المشركين, وهذا المقتضى تنبني عليه معلومة جديدة تمثّل المقتضي أو المعطي وهي الدعوة التي يريد الله -سبحانه وتعالى- توكيدها وهي «إنذار المشركين أنّ همّهم بقتل الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- هو منتهى أمد الإمهال لهم، فإذا صمّموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذّبة قبلهم حين همّت كلّ أمّة برسولهم ليأخذوه»(٦٦)، ويجعل الله من هذا المقتضى حجّة لنتيجة هي: «فأخذ الله الأمم عقوبة لهم على همّهم برسلهم فأهلكهم واستأصلهم فكيف كان عقاب مستعمل في التّعجيب من حالة العقاب وذلك يقتضي أنّ المخاطب بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب وإنّما بني ذلك على مشاهدة آثار ذلك الأخذ في مرور الكثير على ديارهم في الأسفار»(٦٧).

ومن هذا المنطلق لاحظنا أنّ الاقتضاءات تعلّقت بالخطاب وظيفيّا ,فمن الإدراك الدلالي الخالص للاقتضاءات كمتعلقات جمليّة إلى إدراك ينظر فيها بصفتها تحديدات إخباريّة. فإنّ المظاهر الاقتضائيّة لا يمكن إدراكها في حدود المستويين السابقين, ذلك أنّ التفريق بين المقتضى والمعطى يؤخذ أساسا باعتماد كفاءات المتكلّم والمخاطب كما يجعل أساسا باعتماد كفاءات المتكلّم والمخاطب كلما أستمدّ بالنظر إلى السياق المقاميّ للتخاطب وبهذا تطرح الظاهرة الاقتضائية في المستوى التداوليّ الذي يضطلع

بتحديد أنواع علاقات التخاطب في مختلف السياقات المقاميّة لضبط الظاهرة استعماليّا, ففي هذا المستوى يزاول الاقتضاء كفعل لغويّ, ويتناول المقتضى كشرط ضروري لتحقيق هذا الفعل.

إنّ الأفعال اللغويّة يمتثل إنجازها بشكل عام لشروط وقواعد معيّنة ,حيث يذعن لمجموعة من الإلزامات التي تجعله تابعا لنوع تدليليّ ما, وخاضعا لتعاقد كلاميّ محدّد(٦٨).

قال تعالى:﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٠ ﴾[الزخرف: ٤٠] .

يعد الاقتضاء إجراء تعتمده اللغة في نشاطها التحاوري, ومفهوما تقصده العبارة في حجاجها المنطقي والتداولي(٦٩)، وبذلك يبدو أننا إزاء استفهام عادي, إلا أنه بتأملنا لطرفي الحوار في الآية نجد أن الطرف الأول (السائل)(الله سبحانه وتعالى) لا يمكنه أن يسأل لأنه عالم بكل شيء, كما أن الطرف الثاني (المسؤول) (النبي محمد صل الله عليه وسلم) لا يمكن أن يكون أعلم من السائل, لذا فطبيعة العلاقة بين الطرفين تقتضي الانتقال من الفعل اللغوي المباشر الذي يتجلى في المعنى الحرفي للاستفهام ,إلى الفعل اللغوي غير المباشر الذي هو المعنى الاستلزامي الذي اقتضته العلاقة بين الطرفين والمقام, وهذا الفعل اللغوي غير مباشر هو الإنكار(٧٠)، أي: «أفأنت – أيها الرسول الكريم – تستطيع أن تسمع الصم صوتك .... »(٧١)، استفهام جاء بطريق النفي والمقتضى هو عدم قدرة الرسول أن يسمع الصم أو أن يهدي الذين انطمست بصائرهم عن طريق الحق أو أن يخرج من كان في الضلال إلى الهدى(٧٢).

وجاءت الملافيظ (الحجج) في هذه الآية وصفهم بالصّمم والعمى وما أحسن هذا التّرتيب وأنها ليست ذات طاقة إقناعية واحدة, بل متفاوتة « وذلك لأنّ الإنسان في أوّل اشتغاله بطلب الدّنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثمّ كلّما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيّات أشدّ وإعراضه عن الرّوحانيّات أكمل،

لما ثبت في علوم العقل أنّ كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الرّاسخة فينتقل الإنسان من الرّمد إلى أن يصير أعشى فإذا واظب على تلك الحالة أيّاما أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينيّة»(٧٣)، تسلسلت الحجج من الأضعف والأهون إلى الحجة الأقوى والأنجع هذا هو السلم الحجاجيّ كما يحدّ طه عبد الرّحمن: «عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة تراتبيّة »(٧٤)، ولعلّ المركزيّ في حدّ عبد الرّحمن هو إشارته إلى العلاقة التّراتبيّة التي تنتظم سيرورة الملافيظ داخل البنية القوليّة, فمن المنطقيّ, يجعل من تتابع الملافيظ وانتظامها بشكل دون آخر قصد مقصود, يلجئ إليه المتكلّم في سبيل الإقناع والتأثير في المتلقي(٧٥).

قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٠].

فالمكون اللسانيّ للآية اقتضى اقتضاء خاصا في إعطاء ملفوظها وصفا دلاليّا خارج السياق؛ لذا اقتضى هذا القول فعلا إنجازيّا تواصليّا تمثّل في الاستفهام التقريري ولفعل الاقتضاء هنا مكّن السّامع من المشاركة في التخاطب بفضل الاستفهام الذي ضبط المقتضى بمعنيي أحدهما هو:

الأول: خيريّة قوم تبع والآخر: سلب الخيريّة عن الأقوام التي سبقتهم، ولا يتعلق الأمر في المقتضى بنقل معلومات أو معارف مطلوبة للمخاطب فقط, وإنّما بنقل مؤسّساتيّ قانونيّ يؤثر على الكيفيّة التي سيمارس بها المخاطب دوره في التخاطب إطارا للتخاطب كلما قبل المشاركة فيه إنّنا عندما نقدم مقتضى ما في ملفوظ ما فأنّنا نكون بذلك قد حدّدنا الدور الذي يجب أداؤه كي يدوم الخطاب أو التخاطب وإنّ التحديد القانونيّ لفعل الاقتضاء يتيح معرفة الدور الذي يلعبه الاقتضاء في استراتيجيات العلاقات اللسانيّة, وبهذا فإنّ هذا التخصيص برّز الفعل التأثيريّ إلى جانب فعلي القول والإنجاز داخل الفعل اللغويّ للاقتضاء(٧٦)، ومن تتبع هذه الظاهرة لاحظ أن اللسانيين قد اشتغلوا

الاقتضاءات كظواهر متعلقة باللسان وليس بالكلام ,فهي تعلن في المكوّن اللسانيّ بالسياق المقاميّ للملفوظ؛ لتخصيص المعنى الفعليّ داخل المقام. وقد جاء تخصيص هذه الازدواجيّة بين المكوّنين اللسانيّ والبلاغيّ؛ لتخصيص الحيّز الذي تشغله أصناف الفعل اللغويّ, هذه الأصناف التي تقع في مستوى المكون اللسانيّ, فليست الاقتضاءات إلّا صنف من أصناف الفعل الإنجازيّ كالأمر والاستفهام وغيرهما[٧٧].

نتائج البحث:

إن ثنائية الإضمار والاقتضاء يؤديان وظيفة حجاجية يجعلان الحجة أكثر التصاقا بمنبتها اللغوي ,ولا يخفى ما يكتنف عنصر اللغة من طابع منطقي تسري صرامته على متلقي الخطاب فتوجهه وجهة يعجز في أحيان كثيرة عن مواجهتها ورفضها.

إنّ الاقتضاء يوجد في جميع المستويات اللغوية فهو موجود في بعض الكلمات القرآنية حيث يؤشر المعنى المعجمي لبعض هذه الكلمات في سور الحواميم على مقتضيات معجمية توجه الملفوظ نحو وجهة حجاجية ما وكذلك بعض المقتضيات التركيبية مثل(الاستفهام, الشرط) في سور الحواميم تقوم بوظيفة حجاجية تجعل الملفوظ ذا طاقة حجاجية مقنعة ومؤثرة في المخاطب.

الهوامش:

[١]: ينظر: الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجي بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب: ٩١، وينظر: المضمر: ٢٤.

[٢] المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب:١٠٥.

[٣]:ينظر: أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته:١٣٩

[٤] لسان العرب :مادة (ق.ض.ى):

[٥] ينظر: (الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية)بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:٩٢

[٦] ينظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي:١١٨

[٧]: ينظر:(الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية)بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:٩٣

[٨] ينظر: الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية بحث ضمن التحليل الحجاجي للخطاب:٩٦

[٩] ينظر: نظرية الحجاج في اللغة, ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم:٣٧٣-٣٧٥

[١٠] ينظر: اللسانيات والتداولية: مجلة اللسانيات:١٢

[١١] المضمر:٦٢

[١٢] ينظرالمضمر:٦٢-٦٤

(١٣) نظريات الحجاج في اللغة ,ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم:٣٧٢
(١٤) ينظر: الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:٩٥
(١٥) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية:١٩٢/١-١٩٣
(١٦) ينظر: آليات الحجاج القرآني :١٧١
(١٧) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: ١٩٣.
(١٨) المصدر نفسه: ١٩٣.
(١٩) ينظر: آليات الحجاج القرآني:٢٥٤.
(٢٠) نظرية الحجاج في اللغة:٣٧١.
(٢١) ينظر: الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب :١٠١.
(٢٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية : ٨٨-٩٠
(٢٣) ينظر: الحجاج في القرآن:٣٩٠
(٢٤) التحرير والتنوير:٢٣٩/٢٤
(٢٥) آليات الحجاج القرآني:٢٣٦
(٢٦) التحرير والتنوير:٢٣٩/٢٤
(٢٧) ينظر: الحجاج في القرآن :٣١٠
(٢٨) التحرير والتنوير:٢٣٩/٢٤
(٢٩) المصدر نفسه:٢٣٩/٢٤
(٣٠) لسان العرب: مادة: كفر
(٣١) المفردات الأصفهاني:٤٣٣-٤٣٥
(٣٢) ينظر: آليات الحجاج القرآني :٢٤٨
(٣٣)ينظر: الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:١٠٥
(٣٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن:١٣٢
(٣٥) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:٢٦٥/٤
(٣٦) مفاتيح الغيب:٦٤٤/٢٧تفسير الوسيط:٣٨١٣/١
(٣٧) ينظر: الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:١١٧
(٣٨) رصف المباني في شرح حروف المعاني :٢٨١-٢٨٤
(٣٩) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب :٣٨٥/٣
(٤٠) التحرير والتنوير:٣٠٧/١
(٤١) الحجاج اللساني:٢٢١
(٤٢) تفسير الوسيط:٢٧٨/١٢
(٤٣) المصدر نفسه:٢ ٢٧٨/١
(٤٤) ينظر: التحرير والتنوير١٢٣/٢٤وإحياء النحو:٣٥
(٤٥) الاقتضاء في سورة البقرة بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:١١٧، واللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي :٦٠-٧٠
(٤٦) الاقتضاء في سورة البقرة بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب :١١٨
(٤٧) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي:٢٩٦/٢
(٤٨) مفاتيح الغيب:٨٨/٢
(٤٩) الحجاج في القرآن:٣٦
(٥٠) استنباط الأحكام من النصوص:٣٤٩
(٥١) التحريروالتنوير:٩٢/٢٥
(٥٢) مفاتيح الغيب:٥٩٩/٢٧
(٥٣) ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل : ١٢٠
(٥٤) مفاتيح الغيب:٥٩٩/٢٧
(٥٥) الأزهية في علم الحروف:١٦٦
(٥٦) الخصائص:١٧٥/٣
(٥٧) التحرير والتنوير:٣١٨/٢٤
(٥٨) تفسير الآلوسي: وتفسير أبي السعود:

(٥٩) ينظر: الحجاج اللساني:٢٠٤
٦٠: مفاتيح الغيب:٥٧٠/٢٧
(٦١) الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية بحث ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب:١٢١
(٦٢) شروح التلخيص:ج٢مادة :نكر
(٦٣) أساليب الاستفهام في القرآن:١٩٢
٦٤: أساليب الاستفهام في القرآن: ٢٢٥.
٦٥: لكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١٥١/٤.
٦٦: التحرير والتنوير: ٨٦/٢٤.
٦٧: المصدر نفسه: ٨٧/٢٤.
٦٨: ينظر: دلالة الاقتضاء بين الدرس اللغوي العربي القديم واللسانيات الحديثة:٤٥٢-٤٥٣.
٦٩: أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب مقال ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته:١٤٢.
٧٠: ينظر آليات الحجاج القرآني :٢٢٦
٧١: الوسيط:٣٧٩٩/١.
٧٢: ينظر: الوسيط :٣٧٩٩/١.
(٧٣) مفاتيح الغيب: ٦٣٤/٢٧
(٧٤) ينظر: السّلالم الحجاجيّة والظّواهر الدّرجيّة:٢٩٨
٧٥: ينظر: الحجاج اللساني:١٧٧
٧٦: ينظر: دلالة الاقتضاء بين الدرس اللغوي العربي القديم واللسانيات الحديثة:٤٥٤
٧٧: ينظر: المصدر نفسه:٤٥٦

المصادر:

-القرآن الكريم

١. الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، محمد بريم، بحث ضمن كتاب (التحليل الحجاجي للخطاب)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى,١٤٣٧ه٢٠١٦م، ص٩١و المضمر، كاترين أوريكيوني، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الطبعة الاولى,٢٠٠٨.
٢. المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينك مانغينو، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الاولى، الجزائر,٢٠٠٨.
٣. أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب، أحمد كروم، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الطبعة الاولى، إربد-الاردن,١٤٣١هـ-٢٠١٠.
٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور(٧١١ه)، دار صادر، الطبعة الثالثه,١٤١٤ه
٥. كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان,١٩٩٨.
٦. نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، جامعة الآدب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، تونس.ص.
٧. اللسانيات والتداولية، جون سيرافي، تحقيق الحاج حمو ذهبية، مجلة اللسانيات.
٨. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان دريش-محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت,١٤١٩ه-١٩٨٨م.
٩. الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت,٢٠٠٧.
١٠. التحرير والتنوير، محمدالطاهر بن عاشورالتونسي(١٣٩٣ه)، الدار التونسية للنشر، تونس,١٩٨٤م.
١١. معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت,٢٠٠٨.
١٢. آليات الحجاج القرآني، عبد الجليل العشراوي، عالم الكتب الحديث، اربد-شارع الجامعة، الطبعة الاول ى٢٠١٦.
١٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن احمد الزمخشري جار الله(٥٣٨ه)، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الثالثة-١٤٠٧هـ.
١٤. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي ت(٦٠٦ه)، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة الثالثة-١٤٢٠ه، الصفحة:٦٤٤/٢٧ وتفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشروالتوزيع، الفجالة-القاهرة، الطبعة الأولى.

١٥. رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
١٦. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، السلسلة التراثية، تحقيق وشرح عبد اللطيف محمد الخطيب، الطبعة الأولى، الكويت,٢٠٠٠, ص٣٨٥/٣
١٧. الحجاج اللساني من حجاج اللسان إلى حجاج القرآن، محمد ياسر مهدي، دار ومكتبة عدنان، الطبعة الأولى,٢٠٢١.
١٨. التحريروالتنوير:١٢٣/٢٤وإحياء النحو، إبراهيم مصطفى، الطبعة الثانية,١٩٩٢القاهرة.
١٩. الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية:١١٧واللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، جورج لايكوف، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء,٢٠٠٨.
٢٠. استنباط الأحكام من النصوص، أحمد الحصري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٧.
٢١. البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، قدورعمران، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الاول ى٢٠١٢.
٢٢. الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد الهرويّ (٤١٥ه)، تحقيق: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية ,١٩٩٣م.
٢٣. الخصائص، أبو الفتح ابن جنّي (٣٩٢ه)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٢٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(١٢٧٠ه)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة: الاولى ١٤١٥ه: ص٣٨٢/١٢وتفسير ابي السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢ه)، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
٢٥. شروح التلخيص، سعد الدين التفتازاني، دار الكتب العلمية بيروت.
٢٦. أساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم سيد فودة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآدب والعلوم الاجتماعية، القاهرة.
٢٧. دلالة الاقتضاء بين الدرس اللغويّ العربيّ القديم واللسانيّات الحديثة (بحث) د. بوشعيب مسعود، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانيّة، السنة السّابعة، ال عدد١٧, سنة ١٤٤٠هـ.
٢٨. ادوار الاقتضاء واغراضه الحجاجية في بناء الخطاب، احمد كروم، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن,٢٠١٠.
٢٩. السّلالم الحجاجية والظواهر الدّرجيّة، جاك موشلر، ترجمة: عزّ الدّين المجدوب وتوفيق قريرة، ضمن كتاب: (القاموس الموسوعي للتداوليّة)، منشورات دارسيناترا، تونس ٢٠١٠.